السيـــاســـة الاستعمـــاريـــة
من الاحتلال الجزئي إلى الاحتلال الشامل.

أ./ محمد موفـــق

لاشك أن الجزائر قد إبتليت فى تاريخها المعاصر بأبشع نوع من أنواع الإستعمار الأوروبي الحديث وذلك لكونها تتمتع بموقع إستراتيجى- جغرافى وسياسى هام- جعلها عرضة لتقلبات سياسية واقتصادية عالمية، وتتاثر بالسيرورة التاريخية والحركة الاستعمارية الأوروبية الحديثة، التي تكالبت وتنافست على المستعمرات في ماوراء البحار، وضمن هذا الإطار ظهرت الأطماع الفرنسية في الجزائـــر منذ القرن الثامن عشر، وعهد الثورة الفرنسية 1789و نابليون بونابرت.

الوضع السياسى فى الجزائر قبل عام 1849م : تنقسم هذه المرحلة الى فترتين :

-فترة أولى من سنة 1830 – الى – 1840

-فترة ثانية من سنة 1840 –الى- 1849

الفترة الاولى: تم احتلال مدينة الجزائر عام 1830 من طرف القوات الفرنسية الغازية دون مقاومة تذكر، رغم – شهرتها كمدينة محاربة – وذلك لأسباب وهمية ومفتعلة، جعلت منها فرنسا ذريعة لعملية الغزو، وذلك لامتصاص غضب الشارع

الفرنسى وإسكات المعارضة ضدحكم شارل العاشر، وقد عبر عن ذلك شارل روبار آجرون بقوله: "لقد كانت فى آن واحد ذريعة مرتجلة وبادرة تتعلق بالسياسة الداخلية، قامت بها حكومة تعانى صعوبة، فكانت تبحث عن عملية تحفظ لها هيبتها"[1]، وفى الخامس من شهر جويلية من نفس السنة تم استسلام الداى حسين آخر دايات الأتراك بالجزائر،

---

* أستاذ محاضر في التاريخ الحديث والمعاصر- قسم التاريخ- جامعة وهران.

والتوقيع على تسليم مدينة الجزائر لقائد الحملة الفرنسية، وبهذا وضع حداً لحكم دام أكثر من ثلاث قرون فى الجزائر، وأصبح الفرنسيون هم الذين يحكمون البلاد منذ ذلك التاريخ، وزعم مؤرخون فرنسيين أن حكومة بولنياك ماكانت تفكر فى الاحتفاظ بالجزائر[2]، وأن حكومة ثورة تموز 1830 "لم تعرف ماذا تفعل بالجزائر"وذلك بهدف تلميع سياسة لوي فيليب أمام الرأى العام الفرنسي المعارض للسياسة لغزو الجزائر وللرأى العام الدولي وخاصة انكلترا التي كانت ترى في ذلك مساس بالتوازن في المنطقة.

وفي سبتمبر من نفس السنة قررت حكومة باريس الاحتفاظ بالجزائر وفي ابريل سنة 1831 رئيس الوزراء سولت يخبر الحاكم العام بالجزائر (برتيزنى) أنه تقرر نهائيا احتلال الجزائر، وفي اطار المراوغة السياسية احتفظت فرنسا لنفسها بحرية الحركة فى المشروع الجزائري دون أن تقر بالخطة السياسية التى ستتبعها بعد القضاء على حكومة الداي[3]، ويبدو أن ملك فرنسا لوي فليب كان ينوي الإحتفاظ بالجزائر إلاَّ أنه لم يعلن أي تصريح رسمي لذلك حتى يحتفظ لنفسه بحرية القرار والعمل[4]، وقد كتب وزير الحرب فى عهد شارل العاشر في نفس الموضوع سنة 1827 [5] إنه أي احتلال الجزائر (سيسمح لفرنسا أن تطلب فيما بعد نوابا الى فرنسا فى ايديهم مفاتيح الجزائر).

ويجمع المؤرخون للاستعمار الفرنسى بالجزائر، أن الاستيلاء على الجزائر يعد نقطة البداية لاحياء السياسة التوسعية – وتأسيس امبراطورية استعمارية ثانية–وهو الأمر الذى كان حلم ملوك فرنسا وقادتها منذ بداية العلاقات بين الجزائر وفرنسا سنة 1689 فى عهد

لويس الرابع عشر [6] . وهو ما عبر عنه أحد الوزراء الفرنسيين بقوله: "اذا سألنا الكبرياء الوطني، فلا شك أنه يملى علينا الاحتفاظ بالغنم لأني أعرف أن هذا الحلم أبعد عن مصالحنا الحقيقية فمن المؤكد أننا لانفهم شيئا فى أصول الاستعمار كما يثبت التاريخ"[7] .وطبقت فرنسا سياسة الاحتلال الجزئي خلال العشرية الاولى وذلك نظرا للأسباب التالية:

أولا: المقاومة الوطنية للإحتلال بقيادة الأمير عبد القادر، والباي أحمد، والشيخ بوزيان وآخرون من زعماء المقاومة.

ثانيـــا: إنشغالات فرنسا بما يجرى فى أوربا من انقلابات عسكرية ومؤامرات ثورية

ثالثـــا: تكاليف الحرب الباهضة فى الجزائر وصعوبة رصد ميزانية لهـــا.

رابعـــا: ايجاد وضعية قانونيـــة وديموقراطية لاقناع الراي العام الفرنسي.

وفى انتظار تسوية ذلك عقدت معاهدتين مع الأمير عبد القادر بصفته ممثلا شرعيا للشعب الجزائرى والمقاومة الوطنية، ومنافسا قويا على أرض الواقع (معاهدة دى مشال بتاريخ 1834/2/26) ومعاهدة تافنا (1837/05/30) اعترفت فيهما فرنسا بالسيادة الوطنية للجزائر وبالامارة للأميرعبد القادر وقد تم نقضهما بعد ذلك، وتحت ضغط المعارضة السياسية بفرنسا، أوفدت حكومة باريس سنة 1833 لجنة برلمانيـــة الى الجزائر أوكلت لها وضع تقرير عن الجزائر وعن الحكم الملائم لهـــــا.

وبناءا على توصية من اللجنة الإفريقية أصدرت الحكومة قرارها المشهور–وذلك بأمر ملكي– بتاريخ 22 جويلية 1834، يوافق على توصية اللجنة والأمر بإلحاق الجزائر مباشرة بفرنسا[7]. وإعتبارها أرضا فرنسية امتداداً لها. إن المرسوم الآنف الذكر يعد بمثابة الميثاق لعملية الاحتلال، وهو مكمل للمرسوم الملكي الذي سبقه والمؤرخ فى أول ديسمبر 1831، الوثيقتان تعتبران حجر الزاوية والأساس للإحتلال[8] الى أن انتهى بانتصار الثورة المباركة سنة 1962.

أولا– لقد أصبحت الجزائر منذ ذلك التاريخ أرض شاغرة مجردة من ذاتياتها التاريخية وشخصيتها الوطنية.

ثانيا- حلها كدولـــة ومنع تطورها الطبيعي.

إن الوضع السياسي في فرنسا على الصعيد الداخلي والاوربي جعلها تؤجل موضوع الجزائر وتواصل تطبيق سياسة الاحتلال المحدود الذي أوصت به ممثلها في الجزائر كما هو في التعليمة التي وجهت إلى الحاكم العام الجديد (دامريمون) الذي خلف كلوزيل الذي أنهيت مهامه إثر هزيمتـــه أمام أسوار قسنطينة سنة 1836،كانت السياسة الفرنسية الى ذلك الحين تنص على ضرورة المحافظة على تحديد منطقة الاحتلال وتشجيع التوغل السلمي في الجزائر، وجاء في التعليمة السابقة :

1-إن الهدف لم يكن الاحتلال المطلق ولا الاحتلال الكلي للجزائر، وأن الحكومة تفكر في كل شيء.

أ- في قواعدها البحريـــة.

ب- في أمن تجارتها وانتشارهـــا.

ج- في زيادة نفوذها في البحر المتوســـــط .

وشرحت الحكومة للحاكم العام، أن مصلحة فرنسا في الجزائر تتلخص في:

-إحتلال السواحل وخاصة ـــ مدن الجزائر ووهران وعنـــابة مع ما يحيط بهم من الأراضي الساحليـــة، وأن بقية الإقليم يمكن تركه للشيوخ المحليين .

-وأمرته بفرض السلم على الجزائريين (وأن الحرب ليست إلا وسيلة من الوسائل التي تفرض على ذلك الإقليم)[9] . إلا أن هزيمة 1836 وفشل قواتها في احتلال قسنطينة لم تهضمهما فرنسا، وخاصة قادتها العسكريين، وارتفعت أصوات المعارضة اليسارية – والمستعمرين- ووصل (تيار) الى رئاسة الحكومة- في فبراير 1836، كل ذلك ساعد على اتخاذ سياسة نشطة في الجزائر، أدت إلى تسيير حملة عسكرية جديدة،لاحتلال قسنطينة بقيادة الحاكم العام (دامريمـــون)[10]، وخليفته المارشال فـــالـــي[11].

ويعد احتلال قسنطينة وما خلفته هذه العملية من خسائر بشرية في صفوف القوات الغازية آخر مدينة ظلت تحت حاكم عثماني من العهد السابق.

انه لمن المؤكد أن احتلال عاصمة الشرق (قسنطينـــة)، وطرد الباي أحمد منها وجعلها مركزا إدارياً وعسكريـــا، فتح شهية الاستعمار الى التوسع في المنطقة وآذن ببداية عهد جديد للسياسة الإستعمارية في الجزائر.

لقد سنت فرنسا قانونين هامين:

قانون 1838/09/30 وقانون 1838/11/01، ويعتبران كقاعدة قانونية وإدارية لتنظيم المقاطعة الشرقية قبل تعميمهما على باقي المقاطعات الأخرى.

لقد عمد الماريشال فالي الى وضع الأمير عبد القادر أمام أمرين: "أن يضع نفسه ضد السيطرة الفرنسية أو استأناف الحرب " وكلا الأمرين غير مرغوب فيهما، فكان واضحاً أن الحرب قد بدأت وخاصة أن الإنتهاكات الفرنسية لاتفاقية تافنا قد أجهضت من طرف القوات الفرنسية الأمر الذي يرفضه الأمير وإنذاراً بإستئناف القتال .

الفترة الثانية: 1840ـ 1849

كانت سنة 1839 حافلة بالمفاجآت، وقد فشل الماريشال (فـــالي) حاكم الجزائر آنذاك في إقناع الأمير عبد القادر على تعديل إتفاقيـــة (تـــافنـــا) وقد أثار حفيظـــة الأمير اجتياز الجيوش الفرنسية مضيـــق البيبان...وتعقدت الأمور ورفضت فرنسا سماع نداء الحق وتحكيم العقل والضمير الإنسانـــي فرفضت التفاوض و أصرت على إملاء ما تريده من الجزائر وفرض شروطها الأمر الذى لايقبل به عاقـــل.

فكان من الطبيعى أن تستأنف الحرب، وشنت قوات الأمير هجوماتها على القوات الفرنسية فى مقاطعتي وهران والجزائر، الشيئ الذى اعتبره الفرنسيون ذو شأن سياسى خطير، يؤدى الى زيادة الوضع سوء لغير صالح فرنســـا.

وقد أوضح (الملك لوى فيليب) سنة 1839 فى خطاب العرش:

"إن لفرنسا فى الجزائر حقوق مكتسبة قائمة على اتفاقية ووعود" أما ممثل الحكومة (سولت) فقد عبر من جهته أمام مجلس الشيوخ والنواب فى 06 و15 جانفي 1840 بأنه مصمم على إرسال تعزيزات عسكرية الى الجزائر لاخضاع الأمير وبسط النفوذ الفرنسي[12] .وكان ذلك إنذارا لسياسة جديدة، سياسة الاحتلال الشامل التي نادى بها

بيجو والمعارضة في البرلمان، وكان تغيير السياسة يتطلب تغيير الحاكم، وكان بيجو من المترشحين لهذا المهمة نظرا لتصريحاته السابقة من سنة 1836 بعد هزيمة الجيوش الفرنسية بقيادة (كلوزيل).

وهذه مقتطفات منها: "إن انصاف الحلول غير ممكنة وأن التساهل والتسامح والعدالة، لايمكن تطبيقها الا فى حالة السلم فعلى فرنسا ان تختار بين السلم وتتحمل مسؤليتها واذا كانت فرنسا لاتقبل بالانسحاب فعليها تنظيم النصر...وذلك بإظهار قوتها للعرب وفى كل مكان، وفى نفس الوقت...أن هناك من يقول بأن الحكم الرجعى قد إحتل الجزائر وأن حكومة لوى فيليب غير قادرة على المحافظة عليها وإدارتهـــا...أنه اذا كانت حكومة الرجعية قد إحتلت مدينة الجزائر، فإن فرنسا تغزو الجزائر كلها)[13].

بيجو– ومرحلـــة الإحتلال الشامل (1840-1849)

فى سنة 1839 كان الأمير عبد القادر قد تمكن وفى فترة وجيزة من اقامة دولتـــه وتكوين جيشه وبناء تحصيناته وانشاء عاصمته (تاقدامت) واتسعت سلطته واصبح يسيطر على ثلثيى الجزائر، كما أنه أصبح خطرا يهدد الوجود الفرنسى بالجزائر وخاصة أنه كان لا يقبل الا بالتفاوض الند للند مع الفرنسيين، وأظهر طموحات كبيرة فى إنشاء دولة حديثة حسب المقاييس الأوربية بمساعدة عدد من التقنيين والخبراء الفرنسيين والإسبان والأتراك في الميادين العسكرية والعلمية وأنشأ مصانع للأسلحة والمعدات العسكرية والحربية، واتسع نفوذه شمالاً وجنوباً، وقد جاء في كتاب الجزائر في الماضى والحاضر (إن نفوذ الأمير عبد القادر كان على غاية من القوة سنة 1839 جعلت خليفته يزيح الفرنسيين عن بسكرة والزيبان...وكانت الأغواط تدفع له الأتاوة بعد القضاء على التيجانية فى عين ماضى، وامتدت سلطته الى وادى ريغ والمزاب وسيرحب بقدومه اولاد سيدى الشيخ وأولاد نايل في حروبه الوطنية وانضم اليه أهالى القصور فى جنوب وهران والحميان وشملتهم دولته)[14]. وعن (دوماس) كان الأمير عبد القادر فى عز مجده قد أشعر القرى الجبلية بعمله وتجلت علاماته عند أهلهـــا، فكان يرسل بعد موسم الحصاد بالعمال لجمع الخراج وهو العشور[15]. وأمام تصاعد قوة الأمير ونفوذه من جهة، وتزايد الأطماع

الإستعمارية الإستيطانية وما آلت إليه السياسة الفرنسية على المستوى الداخلي والجزائري من جهة أخرى قررت فرنسا تعيين قائداً جديداً للجزائر.

تم تعيين بيجـــو خلفـــا للمارشال (فالـــي) حاكما عاما للجزائر، وكان رئيس الحكومة الفرنسية يعلم أن تعيين بيجو فى هذا المنصب لم يكن ليسهل على حكومة باريس أمر السيطرة على الموقف فى الجزائر اذ أنه كان لايرضى بالاقتصار على تنفيذ الآوامر بل سيفرض شخصيته كما هي على الجزائر[16].

وفى سنة **1841** وصلت الحاميات الفرنسية الى حافة الصحراء ووصل بعضها الى الحصون التى كان عبد القادر قد بناها على أسس استراتيجية سليمـــة، كما توغلت القوات الفرنسية فى المقاطعة الشرقية أيضا وتمكنت قوات الاحتلال من هدم عاصمة الأمير عبد القادر– تاقدمت– **1841**، واكتشفت عاصمته المتنقلة –الزمالـــة– سنة **1843**.

كان قرار تعيين بيجو حاكماً عاماً للجزائر في غاية الأهمية، لأنـــه يعتـــبر الحد الفاصل بين سياسة الاحتلال الجزئي والاحتلال الكلي للقطر الجزائري، وظل محتفظا بهذا المنصب من 22 فبراير **1841** الى **1847/09/11** مما سمح باستقرار القيادة الفرنسية بالجزائر مدة طويلة. أعلن بيجو عند وصوله الى الجزائر عن ضرورة اخضاع العرب وتثبيت العلم الفرنسي فى كل مكان "...وشرح ان الغزو العسكرى غير ذى قيمة مالم تصحبه حركة استعمار واسعة تثبت اقدام الفرنسيين فى هذا الاقليم الجديد، وطالب من الحكومة الفرنسية أن تضع تحت تصرفه امكانيات مادية وبشرية كبيرة.." وفعلا أبدت حكومة (جيزو) تأييدا تاما له طيلة حكمها وأوكلته مهمة القضاء على الدولة الجزائرية الفتية وعلى المقاومة الوطنية وارساء الاسس الاستعمارية الفرنسية بالجزائر، ووفرت له كل ماطلبه من جيش وعتاد.

لقد اتبع سياسة الحديد والنار والتخريب والدمار التى أدت الى انهيار الدولة الجزائرية، وإبعاد رموزها، وقتل أو سجن قاداتها، إلا أنه لم يستطع وقف المقاومة

وانتشارها فى الشمال وظلت محل ازعاج للمعمرين وجعلت من الجنوب مأوى وقاعدة وكسب الخبرات.

لقد كان لسياسة الهدم والتخريب التي اتبعها (بيجـــو) انعكاسات سياسية خطيرة على الجزائر ففي سنة **1841** عندما كان بيجو بضواحي غيلزان وجه رسالة الى رفاق عبد القادر ليكفوا عن مساعدته وكان ردهم عليه بما يلى: "قلت لنا أن الأمة الفرنسية أمة كبيرة وقوية، فلتعلم أن العدل من شيم الكبار الأقوياء فلماذا تريدون الاستيلاء على بلاد هي ليست لكم؟ واذا كنتم أغنياء فماذا جاء بكم الى شعب ليس له ما يعطيه لكم سوى البارود؟...وأنتم بعد هذا تهددوننا بحرق محاصلنا الزراعية واعطائها علفا للخيل والدواب، ولقد اصبنا بمثل هذه المصائب عدة مرات، فمرت بنا سنوات عرفنا فيها القحط والجراد والجوع..ومع ذلك فقد كان الله دائما معنا لأننا مؤمنون ولأننا عرب وليس العرب ممن يقضى عليهم البؤس والشقاء..فلتعلم اذن بأننا لم نخضع لكم أبـــدا"[17].

وقد صرح (بيجـــو) سنة **1843** أمام البرلمان بأن الحرب الجدية قد انتهت، ظنا منه أن اكتشاف زمالة الأمير عبد القادر هي نهاية المقاومة، ولما تيقن ان الأمر ليس هو ما يعتقده، وأن القضية قضية شعب ووطن وليس قضية قبيلة أو أفراد صرح مرة أخرى أمام النواب قائلا: "ستقولون إننا قهرنا النمسا في ايطاليا بثلاثين الف جندي واخذنا مصر بمثل ذلك العدد ولكن المسألة هنا تختلتف، فعلينا فى الجزائر أن نخضع قبيلة قبيلة..."[18].

تمكنت القوات الفرنسية من فرض سيطرتها على الوضع فى الجزائر وخاصة المدن الكبرى والقرى وذلك بفضل تعداد الجيوش الفرنسية التى فاق عددهـــا مائة وعشرة آلاف محارب وقوة سلاحها وأعطت السياسة الجديدة دفعاً للاستيطان وذلك على حساب الجزائريين الذين صادرت أملاكهم وأراضيهم ومنحت للمهاجرين من دول أوروبية مختلفة لحاجة إستعمارية وعنصرية أملتها ظروف سياسية متجدرة لدى ساسة فرنسا خلال القرن **19**، ولم تحقق السياسة الجديدة النتائج المنتظرة إلا أنها أعطت نفسا

جديداً للمقاومة الوطنية التي توسعت وإنتشرت في الشمال والجنوب طيلة القرن التاسع عشر، وكانت المناطق الجنوبية الشرقية والواحات الصحراوية مسرحاً لها.

الهوامش:

1 –شارل روبار آجرون –تاريخ الجزائر المعاصرة مطبوعات جامعية الجزائر سنة 1882 ص 14 .

2 –شارل روبار آجرون –نفس المرجع ص 14 .

3–الدكتور جلال يحي – المغرب الكبير العصور الحديثة 1881 ص 114 .

4–الدكتور جلال يحي –نفس المرجع ص117 .

5–شارل روبار آجرون –المرجع سابق – ص 14–15 التصريح كليرمون دى تونير وزير الحرب .

6 –أبو القاسم سعد الله – الحركة الوطنية الطبعة الأولى بيروت 1969 ص 32 .

7–صلاح العقاد–المغرب العربي–الجزائر–تونس–المغرب– المطبعة أنجلو–مصرية سنة 1969 ص 101 .

8 – Claud Martin الجزائر الفرنسية ص 128 .

9 –جلال يحي–المرجع السابق– ص 154

10–الدكتور أديب حرب التاريخ العسكري والإداري للأمير عبد القادر الجزائري 1808 –1847 الشركة الوطنية للنشر والتوزيع الجزائر سنة 1882 ص 253–.254

11–جلال يحي مرجع سابق ص 153

12–جلال يحي –نفس المرجع– ص 163

13– أندري نوشي وآخرون الجزائر بين الماضي والحاضر ترجمة اسطمبولي رابح و منصور عاشور –ديوان المطبوعات الجامعية الجزائر 1984 ص 386 .

14–أندري نوشي–نفس المرجع ص 386 .

15-صلاح العقاد المرجع السابق ص133

16-مصطفى الأشرف -الجزائر الأمة والمجتمع- ترجمة د/ حنيفي بن عيسى المؤسسة الوطنية لكتاب الجزائر سنة 1983 ص132

17- صلاح العقاد -المرجع السابق .ص 133

18-اسماعيل العربي- الصحراء الكبرى وشواطئها- مؤسسة الوطنية للكتاب سنة 1983 ص 140-148

الأطروحات الجامعية حول الثورة الجزائرية.

أ./ عبد الله مقلاتي

حضيت الثورة الجزائرية باهتمام الكتاب والمثقفين، واستقطبت إليها الباحثين والمختصصين الذين أولوها عنايتهم، وكرسوا أبحاثهم الأكاديمية لدراسة قضاياها المختلفة، وفي ظل الزخم العلمي المتعدد الأشكال (كتب، صحف، وثائق، إنتاج سمعي وبصري...) تحتل الأطروحات الجامعية مكانة متميزة لما تتسم به من عمق فكري ودقة علمية، ولما يتوافر في اجازتها من جدة وابتكار.

وقد دفعتني اهتماماتي الشخصية وتخصصي في تاريخ الثورة، لجمع عنيات الرسائل الجامعية المتعلقة بتاريخ الثورة الجزائرية، وسأحاول جاهذا تقديم قراءة تحليلية لمضامينها وأبعادها قصد تعميم الاستفادة، والإعلام عن هذه الأطروحات والإجابة عن السؤال الذي يطرح نفسه بحدة وهو:

"ما هي حدود معالجة الأطروحات الجامعية لقضايا تاريخ الثورة الجزائرية ؟ ".